



مسجد أبو العباس في الإسكندرية

Abou El-Abbas Mosque in Alexandria, Egypt

السياحة الدينية في التراث الإسلامي

ابن جبير نموذجاً: السائح والأديب والمؤرخ!

وإذا كان للسياحة (الدينية) هذا الشأن اليوم، وإذا كانت لها تلك الأهداف، فقد كان للسياحة (الدينية) في الماضي شأن أي شأن.

وهذا الشأن الذي كان لها إرثها من أجدادها لا الحكومات، ولا البلد المقصود، بل السائحون أنفسهم، فهم لا يطمعون بأن تمهد لهم السبل وتذلل الصعاب، بل إنهم يوطنون أنفسهم على سلوك الأوغار، واقتحام العسير.

ولكن ما هي السياحة الدينية التي نعنيها في مقالنا هذا؟ ليست هذه السياحة نوعاً واحداً كما هي السياحة الدنيوية.

إنها نوعان من السياحة: سياحة يقصد بها أداء واجب ديني، وسياحة تسجيل العلم وأخذه من أفواه العلماء، والاستجارية بنشره بين الناس.

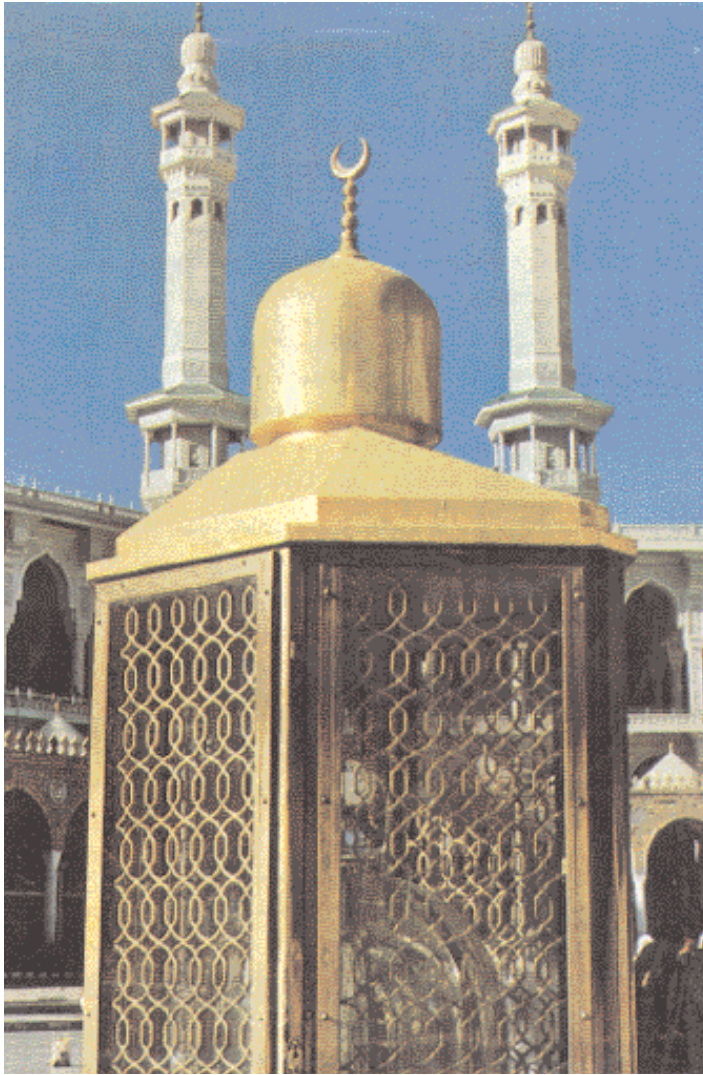
وإذا كان يراد بهذه السياحة هدفاً أخروبياً هو اكتساب الأجر عند الله، وهو هدف يقصد قصداً، فإنها تحقق هدفاً آخر لم يقصده السائح، وإنما هو الذي يقصد السائح، وهذا الهدف هو تعريف السائح على البلاد التي لم يكن يعرف عنها شيئاً، ولا كان يمكن

حسن الأمين
باحث ومؤرخ لبناني

السياحة (الدينية) في هذا العصر أصبحت من مقوماته وجزءاً من حياته، فما من بلد إلا وفيه وزارة للسياحة ومجلس أعلى للسياحة، وما من دولة إلا وتحسب في كل عام عدد من السائحين، وما أنفقوا فيها من مال وقضوا من أيام وليال.

إن السياحة في هذا العصر هي همّ السائح الذي ينتظر الفصل الذي يرتاح إلى جوه فيرتاد بلداً من البلاد طلباً للراحة ونشداً للصحة واستهدافاً للأنس، وهي همّ البلد المسوح إليه، فيفكر فيما يغري السائحين، وما يحملهم على العودة إليه حيناً بعد حين...

وما أحسب أن في السياحة (الدينية) الراهنة من بتعاطاها سعياً إلى اكتساب المعرفة والازدياد في العلم، على عكس الماضين الذين كانوا يجوبون الآفاق ويتحملون المشاق لا تنزهاً وتفرجاً، بل تعلماً وتثقفاً، ليعودوا إلى الأوطان معلمين مفيدين، ومؤلفين مرشدين.



مقام ابراهيم في المسجد الحرام
Maqam Ibrahim at the Great Mosque in Makkah

الفترة العصبية، وهذه المعرفة تؤدي إلى معارف وإلى جلاء الكثير من الحقائق الغامضة. وبعثاً كنا نطالع كتب التاريخ لنصل إلى بصيص يمكن أن ينير لنا ما أظلم من تلك الأحداث. ولكن ما عسر علينا معرفته في كتب التاريخ عرفناه في ما سجل ابن جبير في سياحته (الدينية). فالزمن الذي مر فيه ابن جبير في جبل عامل كان سنة 580 هـ وفي هذه السنة كان الفرجة يحتلون جبل عامل. وكنا لا نعلم ما حل بالقرى والداكر العاملة في تلك الحقبة. أكانت عامرة أم كانت خراباً؟ أبقى سكانها فيها أم نزحوا عنها؟ فإذا بابن جبير يروي غلتنا ويجيب عن تساؤلنا واصفاً مروره في صميم جبل عامل: "ضياح متصلة وعمائر منتظمة..."

ثم هو لا يتركنا في حيرة من أمرنا عن حقيقة النازلين في تلك الضياح وتلك العمائر بل يردف قوله الأول بقوله ثان: "...سكانها كلهم مسلمون..." ولكن حيرتنا ستشتد، واستغرابنا سيعظم، لو أنه اكتفى بذلك!

فكيف ينزح سكان بيروت وصيدا وصور عن بلدانهم مرغمين، ويبقى سكان جبل عامل في أرضهم آمنين؟!

ابن جبير يجيبنا عن ذلك حين يقول عن أولئك السكان المسلمين أنهم: "يؤدون للفرجة نصف الغلة وجزية عن كل رأس ديناراً وخمسة قرايط، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة ولا يعترضونهم في غير ذلك، ومسكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم..."

أن يعرف عنها شيئاً لولا فرض السياحة الدينية عليه. وكذلك تعريفه على ما تضمه تلك البلاد من البشر الذين ما كان له أن يتعرف عليهم لولاها. ولا يخفى ما في ذلك من توسيع آفاق الفكر واكتساب أنواع من العلم التجريبي الذي يهيب بالإنسان إلى الأخذ بالمحمود ونبذ المذموم. وهكذا يكون الإسلام قد فرض على المسلمين السياحة في الدنيا ليتمرسوا بشؤون الحياة ويزدادوا خبرة ونضوجاً.

فالمسلم الأندلسي أو الصيني أو الهندي أو الفارسي أو التركي أو الأندونيسي أو ما شئت من أجناس، يسوح في الأرض بأمر الله فيكسب أجراً ويكتسب معرفة. هذه السياحة (الدينية) التي يجتمع فيها له نورانية الدين والدنيا. وإذا كان للسياحة الدينية مثل هذا الأثر في نفس السائح، فقد كان لها أثر آخر أعمق أثراً في المجتمع الإسلامي. فإن أفراداً من هؤلاء السائحين كانوا ذوي تطلعات أدبية ونزعات تعليمية فحملوا أفلامهم وأوراقهم يسجلون عليها صدى مشاهداتهم وصور مرثياتهم فكانت بعدهم من عصرهم إلى هذا العصر وإلى ما بعده من عصور. كتب أدب وتاريخ وجغرافية لم يكتبها قبلهم أديب ولا مؤرخ ولا جغرافي. لاسيما وأن بعضهم لم يقنعه الوصول من بلده إلى بلد الله الحرام، بل كان يشد الرحال بعد ذلك إلى بلاد أخرى ليشاهد ويسجل وينشر. وبرز ابن جبير هنا خير مثال للسياحة (الدينية) التي أنتجت ما أنتجت.

كان ابتداء سياحة ابن جبير من غرناطة في الأندلس يوم الخميس الثامن من شوال سنة 578 هـ (3 شباط سنة 1183م) فوصل إلى جزيرة طريف وعبر البحر منها إلى مدينة سبتة، ومن سبتة سارت سفينته في البحر في 29 شوال (24 شباط) فوصلت الإسكندرية في 29 ذي القعدة (26 آذار) أي إن الرحلة من سبتة إلى الإسكندرية اقتضت ثلاثين يوماً.

وفي الإسكندرية تبدأ تسجيلات ابن جبير التاريخية، فنعلم منه كيف كان يجري التعامل مع المسافرين، إذ أن أمناء السلطان - كما يسميهم - طلبوا جميع من كان في السفينة من المسلمين واحداً واحداً لتقييد أسمائهم وصفاتهم وبضائعهم قبل النزول إلى البر.

على أن تسجيل هذا الحدث لا يعد شيئاً أمام ما سجل من الأحداث التاريخية التي لم يسجلها مؤرخ، ولولاها ضاعت حقيقتها وغمض عنا أمرها.

ومن عذاب عبر البحر الأحمر إلى مدينة جدة، ومنها إلى مكة، وبعد قضاء فريضة الحج سار مع الراكب العراقي إلى العراق ف قضى في بغداد ثلاثة عشر يوماً بعد أن شاهد ما شاهد من المدن العراقية في طريقه إلى بغداد. وترك بغداد إلى الموصل في 15 صفر سنة 580 هـ (1184م) وصل بعد ذلك إلى حلب في سوريا ومنها إلى دمشق. لن نعرض هنا لما كتبه عن العراق وبلاد الشام، مع أن ما كتبه عنهما هو وثائق تاريخية جغرافية اجتماعية ثمينة. ولكن كل ذلك يصغر أمام ما دونه في طريقه من دمشق إلى مدينة عكا ثم إلى مدينة صور.

المؤرخون المسلمون الذين كتبوا التاريخ الصليبي، لم يكتبوا إلا عن المدن الإسلامية وما اعتزها على أيدي الفرجة من تقتيل وتخريب وتشريد، ولم يعنوا بالأرياف الإسلامية، فلا نستطيع أن نعرف من خلال ما سجلوه، أي شيء عن حال تلك الأرياف وحال فلاحها الفرويين، وما انتهى إليه أمرهم مع الفرجة المحتلين.

ولكن هذا الذي أهمل المؤرخون تسجيله، سجله هذا السائح سياحة دينية، فكان بذلك لا مجرد سائح يسجل خواطره، بل كان - دون أن يقصد - مؤرخاً أصيلاً يكتب تاريخاً كان يجب أن يكتبه المؤرخون لا السائحون، وكان إلى ذلك جغرافياً بارعاً يتحدث عن البلدان والجبال والوديان.

ابن جبير باجتيازه الطريق من دمشق إلى عكا ثم إلى صور يكون في مرحلة من مراحل رحلته قد اجتاز جبل عامل من شرقه إلى غربه، من بلدة هونين أول بلدة عاملية من الطرف الشرقي حتى مدينة صور أول مدينة عاملية من الطرف الغربي. وإذا كان لم يجتز ما بعد صور من البلدان العاملة، فقد كان تعريفه بما عرفنا به في ما اجتازه كافياً لأن نعلم بأن حال ما لم يجتزه هو حال ما اجتازه.

كم كنا راغبين بأن نعرف حال العاملين خلال الاحتلال الإفريقي. وحال جبلهم في تلك



صحن الروضة الكاظمية في بغداد
Open courtyard of the Al-Rawdha al-Kadhimiya in Baghdad

هذا النص مضافاً إلى النص السابق هو أعظم ما كُتب في تعريف حال المواطنين القرويين خلال الاحتلال الإفرنجي.

ويتلخص الموقف استنتاجاً من نصوص الرحلة بما يأتي: الزخوف الفرّجية يخيلها ورجالها نزلت المدن فأعملت السيف والنهب في بعضها. كما جرى في طرابلس وبيروت. واكتفت من مدن أخرى بجلاء أهلها وفرض الأموال الباهظة عليهم كما في صيدا وصور.

وهذا التمييز تبعاً للحالة التي دخل بها الفرّجة إلى تلك المدن. فالمدن التي رفضت الاستسلام وظلت تقاوم حتى دخلوها منتصرين عاملوها بالقتل والنهب. والمدن التي فاوضت على التسليم بشروط. طبقوا فيها تلك الشروط. ومنها الرحيل.

وأعقب جلاء العرب أو قتلهم حلول الفرّجة محلهم. فعادت المدن فرّجية بسكانها ما عدا قلة قليلة ظلت في بعض المدن. وكانت هذه القلة أعجز من أن تؤثر في مصائر المدن ومجرى حياتها.

والفرّجة النازلون في هذه المدن كان منهم

حكاهما كما كان منهم الجنود المحاربون. ثم كان من الطبيعي أن تنشأ طبقة تجارية تؤمن احتياجات المدن وتتسلم زمام الاقتصاد وتوجهه وتسيطر عليه.

ولكن إذا ما استطاع الفرّجة أن يكونوا الحكام والجنود والتجار والصناع. فهل يستطيعون أن يكونوا الفلاحين؟ هذا ما لم يكن مستطاعاً لهم لأن جماعة الفلاحين التي رافقت الحملة الصليبية إنما فرت ما كان تعانیه في بلادها من رق واستعباد. فلما طُلب إليها أن تتولى زراعة الأرض المفتوحة رفضت ذلك خوفاً من العودة إلى ما كانت عليه في بلادها من هوان. لذلك لجأ قادة الصليبيين إلى الخل الذي ذكره ابن جبير فطلبوا إلى أهل البلاد أن يبقوا في أرضهم على الشروط التي بينها ابن جبير.

هذا الوضع الذي كان لا بد منه حفظ للقرويين وجودهم أولاً. ثم عقائدهم وحرّياتهم. وإن اضطرار التفرّج لعدم إغضاب الفلاحين. وحرصهم أن يتمسك الفلاحون بأرضهم كان العامل الوحيد لأن يرى ابن جبير الضياع المتصلة والعمائر المنتظمة وأن يكون جميع سكانها مسلمين.

ولم تكن هذه الحال حال جبل عامل وحده. بل كانت حال جميع الأرياف الإسلامية التي احتلها الفرّجة. فابن جبير يقول "وكل ما بأيدي الإفرنج من إطلاق بساحل الشام على هذا السبيل. رسايقها كلها للمسلمين وهي القرى والضياع"⁽¹⁾

وهناك نوع آخر من السياحة الدينية هي لقاء العلماء لتلقي الحديث عنهم مشافهة. ودراسة الحديث وتدرّسه كانا في أساس النظام التعليمي عند المسلمين. وحين نطالع تاريخ بغداد للخطيب البغدادي. وتاريخ دمشق لابن عساكر. نجد أن جل ما فيهما هو العناية بالحديث والمحدثين.

وفي القرون الإسلامية الأولى كان التركيز على ضرورة سماع الحديث شفاهاً من شخص سمعه كذلك شفاهاً. لارتباط ذلك بالإسناد الذي إذا فقد لم يعد الحديث ذا موضوع. وهذا ما أدى إلى سياحة (دينية) فريدة كانت تُسمى الرحلة في طلب العلم.

فعلي بن هبة الله المعروف بابن عساكر (499-571هـ) (1105-1176م) مؤرخ دمشق ومحدثها سافر من دمشق في طلب الحديث. فكانت له سياحتان (دينتان) واحدة إلى بغداد سنة 521هـ وأخرى إلى خراسان سنة 529هـ عن طريق أذربيجان ماراً بخوي وتبريز ومرند. ثم زجان. ثم أبهر. وصولاً إلى خراسان. سامعاً من مشايخ هذه البلاد. وغيرها من البلاد.

وابن عساكر هذا نموذج للسياحات (الدينية) التي قام بها العلماء. على أنه إذا كان

لنا أن نطلق على هذه السياحات صفة (الدينية) لأن هدفها كان دينياً. فقد تجاوزت هذا الوصف. فالذين أرخوا لابن عساكر مثلاً ذكروا من سمع منهم الحديث في مدينة (أبهر) ثم قالوا: وسمع من هبة الله بن أبي الهيجاء شيئاً من الشعر. وبذلك تكون هذه السياحات الدينية سياحات أدب وشعر وثقافة عامة إلى جانب هدفها الأساس: سماع الحديث وروايته.

وقال ابن عساكر متحدثاً عن سياحاته الدينية من قصيدة:

وأنا الذي سافرت في طلب الهدى
وأنا الذي طوّفت غير مدينة
والشرق قد عاينت أكثر مدنه
وجمعت في الأسفار كل نفيسة
وسمعت سنة أحمد من بعدما
ورويتها بأمانة وصيانة
واخترت عقداً لم تشبه بدعة

سفرين بين فدادن وتنائف
من أصبهان إلى حدود الطائف
بعد العراق وشامنا المتعارف
ولقيت كل مخالف ومؤالف
أنفقت فيها تالدي مع طارفي
ونزاهة تنفي سفاهة فارفي
بل يقتفيه خالف عن سالف

وهو في أبياته هذه يجلو لنا السياحة الدينية أحسن جلاء. هذه السياحة التي توطن نفس صاحبها على جوب الأفاق البعيدة. وتحمل المصاعب الشديدة. ليجمع في الأسفار النفائس من السنة النبوية المتمثلة فيما يراه الصحيح من الحديث.

وما ذكرناه هنا لا يعدو كونه إلمامة موجزة كل الإيجاز عن السياحة الدينية. فأحدث عنهما يمكن أن يطول ويطول لمن أراد الاستزادة والإفاضة.

(1) إذا كان ابن جبير قد دَوّن سياحته (الدينية) نغراً. فجاءت-عدا ما ذكرنا لها من فضائل- نموذجاً وهاجاً لأدب الرحلات في تاريخ الآداب العربية. فإن سائحاً (دينياً) آخر قد دَوّن سياحته الدينية شعراً. فجاء بلون طريف من ألوان الشعر العربي. ذلك هو محمد المرابط بن محمد بن أبي بكر الدلاني الشاعر المغربي المتوفي 1678/1089م أثبتتها في ديوانه حسب نسخة الكاتب الأديب حماد بوعباد ومطلعها:

زم الهوادج واتنسد بسا حادي
فلفد حملت بها جميع فؤادي

ذكر في البذور الضاوية أن محمد المرابط هذا نظم قصيدة من مائة وستة وثلاثين بيتاً سماها: "الرحلة المقدسة". ورتبها على منازل الحاج الفاسي من باب الفتوح لمدينة تازا.

وجعل يذكر المنازل إلى المدينة المنورة. ■